٢٢٤

سليمان العيسى في نَبْرته الهادئة

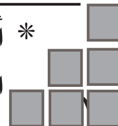
د. ملكة أبيض*

عُرِف سليمان العيسى شاعراً قومياً جماهيرياً.

بدأ إلقاء الشعر على أطفال قريته.. ثم على رفاقه في المدرسة.. فعلى مواطنيه في «نادي العروبة» بأنطاكية.. وفي شوارعها.. همّه الأول لم يكن الشعر.. بل النضال في سبيل قضية كبرى:

* أديبة ومترجمة ومربية سورية.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.



«لستُ شاعراً..
أرضُ الآباء والأجداد، أمُّ الشعر، وخالقة الشعراء،
تريدني شيئاً آخر..
تريدني حُلُماً أصلبَ من الحقيقة، وأكبر من الواقع،
وأبعد من حدود «الجُثَّة» التي تتحرك
ما بين المحيط والخليج..
تريدني عربياً يبحث عن هُويته..
عن جوهر وجوده..
عن جذوره العميقة في أرضه،
يبحث عن أمته..
نعم، عن أمته العربية.»

وسار في هذا الدرب الشائك ما يزيد على نصف قرن.. وهو يقاتل بالكلمة. بصوت مُدَوٍّ، بل ومجلجِل، في معظم أرجاء الوطن العربي، وتلَقَّته جماهيرُ عطشى.. تتوق إلى الخلاص من الهاوية التي أوقعتها فيها عصورُ التجزئة والاحتلال.

كانت تردّد معه مثل هذه الصيحة:

أمــةُ الفتح لن تمــوتَ، وإني
أتحــدَّاكَ -باسْمِها- يا فناءُ

* * *

وتجــيء كارثة حزيران عــام ١٩٦٧ التي قال فيها:

«الكارثةُ تغلُّ روحه..
تسدُّ عليه المنافذ..
تذبحُ في عينيه النور، تدفنه حياً..
طَوالَ عام كامل لم يستطع أن يقول بيتاً..
أن يكتب كلمة..
طَوالَ عام كامل كان يتنفَّس الذلّ
ويختنق بالعار..
ومن يختنق فإنه لا يستطيع أن يكتب.»

تلك كانــت بداية انهيار الحلــم.. وتلتها الخيبات.. واحدة إثْر أخرى.

ويحمل الشاعر أحلامه الموؤودة وينهض.. يبحث عــن كُوىً للأمل، والحركة.. ويبدأ من جديــد.. مرةً بعد مرة. ومــع كل بداية كانت النبرةُ تَخْفُت، والحكمةُ تحلُ محل الاندفاع.

في أدب الأطفال الذي اختار اللجوء إليه، مع اشتداد الضربات، تناولَ موضوعاتٍ تتصل باهتمامات الصغار وحاجاتهم، فتحدث عن الطبيعــة، والألعــاب، والهوايــات، والأسرة، والمدرســة، والأحــلام والآمــال، والعمــل، والوطن...

ونوَّع طرق المخاطبة، فقال الشعر، وكتب المسرحيــة والقصــة الواقعيــة، والخيالية، وعرَّب آثــاراً أجنبية لإغناء هذه التجربة، أو شارك في تعريبها.

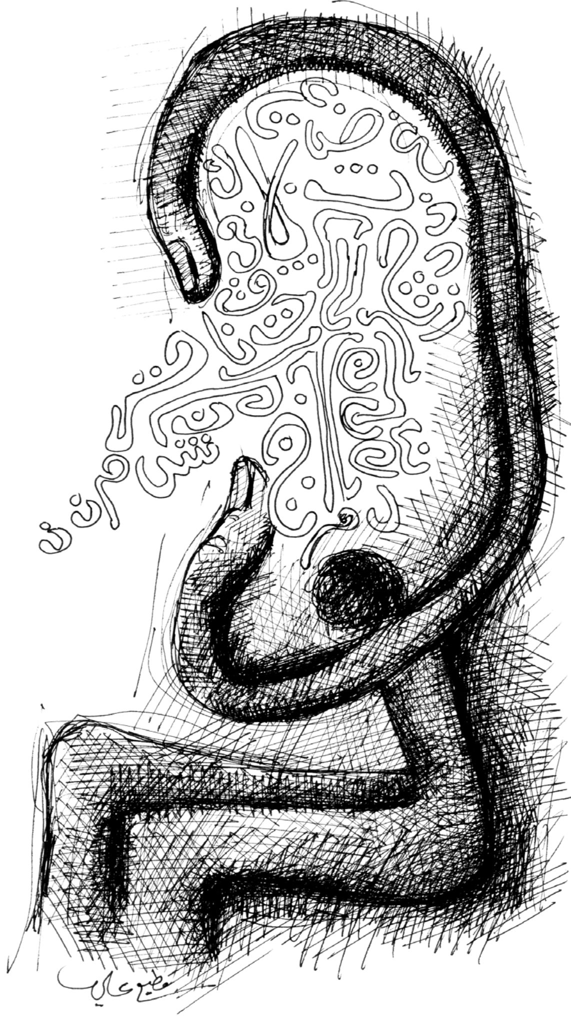
وفي نتاجه للكبار رأى الابتعاد عن الأحداث

المباشرة بقدر يُتيح له الإصغاء إلى العالم الخارجي، وتأمُّل ما وراء الواقع، وإلى عالمه الداخلي الذي أغفله فيما مضى، أو قل صَهَره في الهم العام.

ففي «الثمالات» بأجزائها الخمسة، وغيرها من نتاجه خلال هذه الفترة الأخيرة، توزَّعَ نتاجه بين الشعر والنثر، وبين عدد كبير من الموضوعات التي أراد فيها أن يقدّم نفسه للقارئ بكل ما فيها من انفعالات وأفكار ورؤىً وهواجس.

ولا أدلَّ على هذا التنوع من التعريف الذي يعطيه فيها للقصيدة، والذي يقول:

«القصيدة..
تكونُ في اللون، وفي الغناءْ
في سكرةِ القُبلة..
في غدائرِ امرأةْ..
في وقفةِ الشموخِ والإباءْ



وفي جنوب الحبْ..
في هدأةِ المساءِ،
في نيرانِ مدْفَأَةْ..
في نقرةٍ على ضُلوعِ العودْ
في غيمةٍ ترحلُ لا تعودْ.»

وأودُّ في هــذه الكلمة السريعــة أن أقدّم نماذج عن هذه القصــائد الهادئة التي يبوح فيها عن مشاعره.

مــن هذه النماذج قصــيدة صــغيرة يعبّر فيها عن نفوره من المشاحنات حول القضايا التــي خاض فيها المبدعون والنقاد في أيامه: الحداثة والتقليد، الشكل والمضمون، الالتزام والتحرر.. إلخ، فيقول:

خَلّني في الظلِّ..
إنَّ الظلَّ أغنى
إنه أبهى، وأسْنَى
إنني أملؤه.. يَمْلَؤني
فكراً وفناً
وشروداً في فجاج اللانهاياتِ،
وإمتاعاً، وحُسْنا..

ومنها القصــيدة التي رثى فيها الشاعر نزار قباني. وهــي تمثل نوعاً جديداً في هذا الباب، وسأكتفي بمقطع منها:

قالتِ الأزهارُ يوماً:
ماتَ شاعرْ..
وحَنَتْ أوراقَها حزناً عليْه.
تنتمي الأزهارُ والعطرُ
إلى الشعرِ، إليهْ
ينتمي الروضُ وأسرابُ
العصافيرِ إليْه..
ينتمي ماءُ الجداولْ
تَكْبَرُ الأعشابُ إذْ تُصغي إليهِ والسنابلْ
قلتُ: بل ماتَ جَسَدْ
حَطَم الصخرُ على الشطِّ الزَّبَدْ.
لا تموتُ الكلمةْ..
«إنَّها في البَدْءِ كانَتْ..»
وستبقَى الشاعرَةْ..

إنها قصــيدة هادئة إلى أبعد الحدود، في مواجهة قضية الموت، موتِ شاعر. هل يموتُ الشــعرُ. بموت قائلة.. أم يبقى صدىً بعده؟ وإذا مــا بقيَ، فهل يملكُ الحيــاة والعنفوان الذي يُضيفه عليه الشاعرُ حين يُبدع؟ في آخر القصــيدة إجابة قاطعة على لسان القصيدة نفسها:

إنَّني بِنْتُ الحياةْ..
وَرَقُ الوردِ، كبيتِ الشعرِ،
لا يُقْنِعُه رَجْعُ الصدى
أعْطِني الصوتَ، وخُذْ رَجْعَ الصَّدى
إنني أوثر أن أحيا،
وأن تَحْيَوْا معي،
وَلْنَقْتَسِمْ مجدَ العطاءْ.

وقبل أن أُنهي هذه النماذج أرى أن أتوقفَ قليــلاً عند قصــيدة غَزَل أو حنــين بعنوان «مســافرة»، كتبها الشــاعر في مطلع ٢٠٠٦، أثنــاء غياب رفيقته في رحلة اضــطُرت إلى

القيام بهـا بمفردها، وفيهـا لا نكاد نعرف ما الشـعور الذي كان يريـد أن يعبّر عنه من خلالها هل هو الشـوق؟ هـل هو القلق؟ هل هـو الفراغ الذي أحسَّـه بغيابها؟ هل هو كلُّ ذلك؟

لنستمعْ إليه يقول:

أُفَتِّشُ عنكِ في الأُفُقِ
أُفَتِّش في حنايا الغيمِ..
في الليلِ..
الذي ينداحُ في عينيَّ
أمواجاً منَ الأَرَقِ
أُفَتِّش عنكِ في نومي، وفي صَحْوي،
وفي فجري، وفي غَسَقي
أُثَبِّتُ في الرصيفِ عَصَايَ،
إني خائفٌ، جازعْ
أُفَتِّشُ عنكِ..
كيفَ بلا يَدْيكِ سأعْبُرُ الشارعْ؟
أُفَتِّشُ عنكِ..
حينَ أُديرُ مفتاحي بباب البيتِ،
أُخفي عنه..
كُلَّ هَواجسي، قَلَقي
مُسافِرةٌ؟
مَتَى تأْتينَ؟
ينهمرُ السؤالُ غَمامةً،
أنهَدُّ فوقَ عَصايَ،
أبحثُ في ضَبابِ رُؤايَ
عن خيطٍ من الشَّفَقِ.

وهنـا، لا بـد لي من القول: إن سـليمان الشـاعر في نَبرته الهادئـة لا يختلفُ جَذْرياً عمَّا هو في نبرته العالية، الصاخبة.

إن الكلمة الجميلة تسـتطيع الوصول إلى أعماق السامعين وتهزُّهم سواءٌ أكانت عالية، أو خافتة، وما يعطيها جمالها هو الهم الذي تحمله بظلاله وألوانه التي يلقيها على كل ما يمرُّ بالشـاعر في شريط حياته الذي نسميّه العمـر: الحزن، الفَـرَح، الحـب، الطبيعة، المرأة، الوطن، الأطفال، الناس، الأصـدقاء، الخصوم...إلخ.

وهذا الهمّ هو السمة الأولى لنتاج الشاعر وهو الطابع المميِّز لكل ما قاله، والنهر الذي تتفرع عنه كل السواقي.

